هل ترعى روسيا اتفاقية سلام بين سوريا واسرائيل؟

سهيل الغزي
باحث في أورسام

الاتفاق الذي وصفته الحكومة الاسرائيلية بالإنساني اتضح بعد ذلك أنه يحمل شروطاً سرية كشفت عنها صحيفة يديعوت احرونوت الإسرائيلية، ونقلت الصحيفة عن مصادر خاصة أن اسرائيل دفعت مبلغ مليون ومئتي ألف دولار لروسيا ثمناً لعدد غير محدد من جرعات لقاح سبوتنيك الروسي لسوريا.

أعلنت الحكومة الاسرائيلية في الـ 17 من شباط/فبراير 2021م التوصل إلى اتفاق مع النظام السوري يقضي بإطلاق سراح 3 أسرى سوريين، وهم محمد حسين وطارق العبيدان ونهال المقت من السجون الإسرائيلية مقابل إطلاق النظام السوري سراح مواطنة اسرائيلية اجتازت الحدود بالخطأ وتم اعتقالها في محافظة القنيطرة.

الاتفاق الذي وصفته الحكومة الاسرائيلية بالإنساني اتضح بعد ذلك أنه يحمل شروطاً سرية كشفت عنها صحيفة يديعوت احرونوت الإسرائيلية، ونقلت الصحيفة عن مصادر خاصة أن اسرائيل دفعت مبلغ مليون ومئتي ألف دولار لروسيا ثمناً لعدد غير محدد من جرعات لقاح سبوتنيك الروسي لسوريا. وبحسب الصحيفة طلبت روسيا من الحكومة الاسرائيلية الحفاظ على سرية البند المتعلق باللقاح، لكن وسائل الإعلام سربت الخبر مما دفع رئيس الوزراء نتنياهو إلى القول أنه يحترم رغبة روسيا بعدم الحديث عن الأمر. من جهته، نفى النظام السوري عبر بيان نشرته وكالة الأنباء الرسمية (سانا) الخبر، واتهم البيان وسائل الإعلام التي نشرت الخبر بتلميع صورة الاحتلال الإسرائيلي، والإساءة إلى عملية تحرير الأسرى السوريين. يشير هذا الاتفاق الى رغبة روسيا رفع درجة التنسيق والتعامل بين النظام السوري

واسرائيل من تبادل أسرى إلى انخراط في قضايا استمراراً لجهودها الرامية لإعادة إنتاج النظام السوري وتسويقه عربياً ودولياً.

التنسيق العسكري الروسي-الاسرائيلي

منذ بدء التدخل العسكري الروسي في سوريا في أيلول/سبتمبر 2015، أعلنت روسيا أنها تنسق بشكل تكتيكي مع اسرائيل لمنع حصول حوادث بين الدولتين، وهو الأمر الذي أكدت عليه الحكومة الاسرائيلية مراراً.

تعتبر روسيا جنوب سوريا، التي تشمل محافظات درعا والسويداء والقنيطرة، منطقة ذات أهمية لمصالحها في سوريا لعدة أسباب، فالارتباط العشائري بين أهالي درعا والقنيطرة مع ريف دمشق الجنوبي والغربي، كما يُعتبر معبر نصيب-جابر على الحدود السورية مهماً للاقتصاد السوري عبر الحركة التجارية إلى دول الخليج، بالإضافة إلى رغبة موسكو التمدد قرب الحدود الاسرائيلية للعب دور أكبر على الساحة الدولية، كل هذه الأسباب دفعت روسيا إلى التركيز على التعاون مع إسرائيل بشكل أكبر حتى توصلت إلى اتفاق الهدنة مع فصائل المعارضة في محافظتي درعا والقنيطرة في 2017 بعد مباحثات مع الولايات المتحدة والأردن والدول الداعمة لفصائل المعارضة في الجنوب، بغية السيطرة على دمشق وريفها. وبعد استعادة قوات النظام السيطرة على محافظتي درعا والقنيطرة جنوب سوريا في تموز/يوليو 2018، أعلن مبعوث الرئيس الروسي إلى سوريا ألكسندر لافرينتييف أن القوات المدعومة من إيران قد انسحبت بعيداً عن الحدود الاسرائيلية، كما قامت القوات الروسية بتسيير دوريات مشتركة مع قوة الأمم المتحدة لمراقبة فض الاشتباك UNDOF، وأعلنت روسيا إنشاء نقاط مراقبة عسكرية مؤقتة في الجولان لمساعدة قوات الأمم المتحدة.

الغارات الإسرائيلية على سوريا

ترتكز استراتيجية اسرائيل في سوريا على عدم تحويل إيران الجنوب السوري إلى قاعدة لتهديد أمن إسرائيل عبر نشر منصات إطلاق صواريخ، وتنفيذ مقاتلي حزب الله عمليات تسلل إلى داخل الحدود الاسرائيلية لزرع عبوات ناسفة، لكن لا تعتبر اسرائيل تغيير النظام السوري ضمن استراتيجيتها.

سمح التنسيق مع روسيا لسلاح الجو الإسرائيلي شن مئات الضربات على مواقع تابعة للميليشيات المرتبطة بالحرس الثوري الإيراني ومواقع جيش النظام أدت إلى مقتل العشرات من مقاتلي هذه الميليشيات. وتوزعت هذه الضربات في أغلب المحافظات السورية من درعا ودمشق جنوباً إلى دير الزور شرقاً مروراً بريف حماه غرباً ومحافظة حلب شمالًا. لم يكن هدف هذه الضربات الميليشيات المرتبطة بإيران بل استهدفت مواقع جيش النظام ومراكز

أبحاث مسؤولة عن تصنيع وتطوير صواريخ بعيدة المدى تعتبرها إسرائيل تهديداً مباشراً لأمنها الداخلي. رد فعل النظام على هذه الضربات كان محدوداً نظرة لضعف القدرة العسكرية ضد سلاح الجو الاسرائيلي وأكتفى بإطلاق صواريخ أرض-جو ضد الطائرات الاسرائيلية دون أن تصيبها، لكن دفعت الطيران الاسرائيلي الى توسيع استهداف منصات إطلاق الصواريخ وحتى منظومة الدفاع الجوي المتطورة بانتسير، لكن لم تستهدف منظومة S-300 التي نشرتها روسيا قرب مواقعها العسكرية في أواخر 2018. وهذا يُظهر أن روسيا لم تكن مهتمة بحماية النظام من الضربات الاسرائيلية بقدر ما كانت مهتمة بحماية أمن قواتها في سوريا، وفي نفس الوقت، تعلم روسيا أن الضربات الاسرائيلية لن تسبب ضرر أو تهديد حقيقي لبنية النظام إذ أن عدد القتلى من جنود النظام محدود للغاية، ولم تستهدف الضربات مواقع عسكرية على خطوط القتال مع فصائل المعارضة في شمال غرب سوريا كما لم تستهدف ضباط في جيش النظام.

ازدياد التنسيق في الفترة الأخيرة

تهدف روسيا في الفترة الأخيرة دفع العلاقات السورية-الاسرائيلية إلى مستوى جديد ضمن جهودها لإعادة تأهيل النظام السوري دولياً، ووجدت روسيا في رفات الجنود الاسرائيليين في سوريا فرصة لزيادة التنسيق السوري-الروسي. فبعد سيطرة قوات النظام على مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين في جنوب دمشق في أيار/مايو 2018، اتجهت القوات الروسية إلى مقبرة المخيم وأعلنتها منطقة عسكرية، وبدأت عمليات البحث عن رفات جنود الاسرائيليين في المقبرة، وفي نيسان/ أبريل 2019 أعلنت الحكومة الاسرائيلية استعادة رفات الجندي الاسرائيلي "زكاريا بومل" الذي قتل في معركة السلطان يعقوب بين القوات الاسرائيلية والسورية في جنوب لبنان عام 1982 على متن طائرة خاصة برفقة جثث أخرى لم يتم التأكد من هويتها. وأعلن بعدها المتحدث باسم الجيش الروسي إيغور كوناشينكوف أن إسرائيل طلبت من روسيا مساعدتها في العثور على رفات الجنود الإسرائيليين في سوريا، وأضاف أن عملية البحث تم ترتيبها "بعد موافقة روسيا على العملية مع شركائنا السوريين". وفي بداية شباط/ فبراير الماضي نشرت صحيفة (تايمز أوف اسرائيل) خبراً نقلًا عن مواقع سورية معارضة أن القوات الروسية تبحث عن جنديين إسرائيليين يدعيان تسيفي فيلدمان ويهودا كاتس فقدا في معركة السلطان يعقوب أيضاً.

تُدرك روسيا أن هذا التنسيق المتصاعد سيمنح إشارات لإسرائيل أن النظام لا يسعى الى الحرب على الرغم من استخدام إيران وميليشياتها

الأراضي السورية لتهديد أمن اسرائيل، كما يعزز موقف روسيا دولياً حول سوريا الذي يظهر حرصها على التضييق على النفوذ الإيراني المرفوض من قبل عدة أطراف دولية وإقليمية مثل اسرائيل والولايات المتحدة ودول الخليج والأردن التي لطالما اشترطت انسحاب القوات الايرانية وميليشياتها من سوريا قبل الوصول إلى حل للأزمة السورية، هذا الحل الذي تريده لروسيا أن يحفظ نفوذها المتزايد في سوريا ويسمح باستمرار نظام موالي لها مع موافقة دول الخليج والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على ضخ الاموال لدعم عملية إعادة الإعمار. كما يستفيد نظام الأسد من هذا التنسيق في محاولة كسر العزلة الدولية والإقليمية التي عززها قانون قيصر في ظل تفاقم الأزمة الاقتصادية في مناطق سيطرته، وانخفاض مستوى المعيشة عبر دفع دول أخرى على تقديم مساعدات بالطريقة نفسها. وعلى الطرف الأخر، تريد اسرائيل أن تستخدم شراء اللقاحات امتداداً لسياسة القوة الناعمة عبر مسارين، الأول داخل سوريا للتنافس مع النفوذ الإيراني المتزايد على المجتمع السوري عبر الجمعيات الخيرية الإيرانية، وسبق لإسرائيل أن قدمت مساعدات إغاثية للمدنيين في محافظتي درعا والقنيطرة خلال سيطرة فصائل المعارضة المسلحة وقامت بنقل عشرات الجرحى السوريين للعلاج في المشافي الاسرائيلية. وإقليمياً كرسالة للشعوب العربية خاصة بعد توقيع اتفاقيات التطبيع مع عدة دول عربية في الفترة الاخيرة.

في المحصلة، رفع روسيا للتنسيق السوري-الاسرائيلي إلى مستوى جديد يصب في مصلحتها بإعادة انتاج نظام الأسد وتحسين صورتها أمام الشعب السوري، وخاصة المؤيدين لنظام الأسد كما يزيد انخراط روسيا في قضايا الشرق الأوسط وعلى الساحة الدولية، لكن تبقى فرص عقد سلام دائم بين سوريا وإسرائيل ضئيلة لعدة أسباب منها عدم اهتمام إسرائيل بالسلام بعد اعتراف الولايات المتحدة بسيادة اسرائيل على الجولان المحتل خلال زيارة ترامب عام 2019، وتصريحات مسؤولي إدارة بايدن أن الولايات المتحدة لن تتراجع عن قراراتها المتعلقة بالجولان والقدس الشرقية. وتدرك روسيا ونظام الأسد أيضاً، صعوبة إخراج إيران وميليشياتها خارج سوريا حالياً بسبب تغلغلها داخل بنية النظام العسكرية والأمنية وسيطرة قواتها على مناطق واسعة داخل سوريا، وأن أي محاولة لزيادة الضغط على إيران داخل سوريا ستلحق ضرراً كبيراً في نظام الأسد. ■